ايتيقا الاقتصاد المنزلي في الإسلام – السيرة النبوية أنموذجا–

Ethics of housekeeping biography of the Prophet Muhammad as example

د.شريف الدين بن دوبه

كلية العلوم الاجتماعية والانسانية عضو في مخبر [sigma]

جامعة د مولاي الطاهر سعيدة وهران1

charif.bendouba@univ-saida.dz

تاريخ الوصول: 2018/10/03 / القبول: 2019/03/06/ النشر على الخط: 2019/03/15

Received:03/10/2018/ Accepted: 06/03/2019 / Published online: 15/03/2019

الملخص:

يتفاوت الناس في فهم وتمثل الحياة الكريمة الطيبة التي يفترض ان يعيشها الانسان، فهل هي بذخ وترف. ام زهد وتقشف في الحياة؟ والقارئ للسيرة النبوية يجد في يومي النبي الأكرم محمد صلوات الله وسلامه عليه الأسلوب الحقيقي في الحياة، فحياة النبي (ص) لم تكن حرمانا من لذات الحياة، ولم تكن في المقابل انغماسا فيها، بل كان التوازن والوسطية عنوانا لحياته (ص) وفي هذه الدراسة نتعرض لبعض من سيرته الزكية التي تخبر عن جانب من حياه (ص)، والتي تكشف عن المناسبات والمواقف التي تفرض السلوك المناسب، وهذا لا يعني الزئبقية التي يتنازل فيها المرء عن المبادئ والقيم التي يتمثلها والتي يمثلها، فالخاتمية ليست فكرة صورية مجردة، بل فعل وموقف إنساني نجده ونلمسه في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلّم.

الكلمات المفتاحية: ايتيقا؛ الادارة المنزلية ؛الاقتصاد؛ السيرة النبوية؛ الحياة الكريمة.

Abstract:

The economy is the living space for a queen that is not equally owned by all, and the Prophet's biography offers many methods to achieve this ability. A good life is not a luxury, not a deprivation and a sacrifice, but a living in dignity. Dignity is achieved by balancing rights and duties.

Keywords: ethics; economy; Dignity; Prophet's biography ; A good life

إقرأ:

قراءة القراءة مدخل منهجي لفهم إشكالات المعرفة، وأنسنة الظاهرة يستوجب إقحام الباحث جملة من المعايير، والمقاييس تمّ بناءها من خلال تراكم قبلي لمعارف ومعتقدات شخصية وجمعية، فهي عملية تعاطفية بالأصالة تحدث بين القارئ والنص، والحقيقة في هذا اللون من القراءة تكون مخاض التجربة الانفعالية، وعليه نلحظ وجود ملمحين للقراءة، الأول يضعها في دائرة الواجب والإلزام الأخلاقي، والثاني يجعل منها شخصية متهمة، يجب تنبيهها، وإعادة بنائها من جديد على ضوء المعطيات العلمية الموضوعية، ففي الملمح الأوّل تكون مفتاحا للمعرفة، وسفينة الباحث عن الحقيقة، ومن خلالها يتمّ الكشف عن المجهول، وفي الشق الثاني تغيب الحقيقة، وتصبح ضحية لمتهّم مجهول الهويّة، ولانهائي من حيث المصداق، فمسؤولية تغيّيب الحقيقة لا تكون في اقتضاء فرد بعينه، بل يكون الجميع مساهما فيها.

لماذا الإيتيقا ؟

التفرقة بين الأخلاق والإيتيقا تواضعية، اعتباطية، وليست طبيعية، والنقطة المرجعية التي أقيم عليه صرح الفرق بينهما ذات طبيعة رياضية محضة، فهي من حيث البنية التركيبية لا تملك أبعاداً طولية أو عرضية، أو تمظهرا أنطولوجيا يجعلها تفارق الأخلاق في حيثية أو لحظة فكرية معينة، فالأخلاق منظومة كلية عامة، و الإيتيقا منظومة أخلاقية جهوية تتعلق بحقل معرفي معين أو مجال استعمالي خاص، وانتقاءنا الإيتيقا سعيُ لبيان خصوصية القيم المحمدية، فهي قيم أخلاقية قبل أن تكون إنسانية، لأن دلالة إنسانية تفيد، وتعكس الخصوصيات الطبيعية، والثقافية للكائن الإنساني، فهو بطبيعته العضوية قريب من السوائم، وبفطرته الإلهية أسمى من الملائكة، وقد أشار الفيلسوف المغربي المعاصر طه عبد الرحمن إلى هذه اللطيفة، حيث قدّم في أطروحته الفلسفية سلَّما قيميا تصاعديا للمقامات الإنسانية، احتلّت الفتوّة بدلالتها القرآنية موقع التسامي، وكانت الإنسانية بمعانيها أدنى مرتبة يحصل عليها الإنسان.

وانتقائنا لاصطلاح الإيتيقا ليس اجترارا، واقتداء بالغرب، بل نهدف من خلاله إلى بيان الخصوصية، والتفرُّد الذي تملكه الأخلاق المحمدية الأصيلة، فمريدي الغرب يعتقدون أن الإيتيقا كأخلاق خاصة إبداع غربي بامتياز، لأن المرجعية اللغوية التي يقوم عليها معنى الأخلاق في اللغة العربية لا يفي بالغرض الذي تقدِّمه الايتيقا، وإذا كانت الأرضية الدلالية التي تستقى منه الإيتيقا معناها هي المنحى العملي التطبيقي، في مقابل الأخلاق النظرية التي تسبح في فضاء الخيال، فإنّ التجسيد، والمعاينة للأخلاق المحمدية السمحة على أرض الواقع دليلا لتجذُّر المعنى، وصدقيته في الأخلاق الإسلامية "وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ [1]" فاللطيف في أخلاقيات الرسول الأكرم (ص) أنها ممارسات أخلاقية تؤسّس لمنظومة أخلاقية نظرية، وليس العكس، فحسب السيدة عائشة أمُّ المؤمنين:" لقد كان خلقه القرآن" فهو المجال، والدليل العملي للمؤمن المسلم في حياته الفردية، والجماعية.

أما الملمح الثاني الذي دفعنا لانتقاء لفظ ايتيقا فهو المرجعية النظرية التي تقوم عليها الأخلاق المحمدية، على قاعدة التباين التي تعايشه الايتيقات، فهي جهوية أي خاصة بمجال معرفي معين، فلكل مغرفة، ولكلّ مهنة أخلاقها، وعليه فإننا نجد التباين، والتصادم داخل الايتيقا، والذي ينعته كبار الفلاسفة بالتشظِّي في الحياة الأخلاقية، حيث نلمس تعارض القيم بين

[1] سورة القلم، الآية:4

مجال وآخر، في الايتيقا الغربية، وعلى سبيل المثال الحقوق الأخلاقية والمدنية للأبناء في المجتمع الغربي، تتعارض أخلاقيا مع حقوق الوالدين الأخلاقية، في القانون المدني نفسه، ولكنّ الأخلاق في الإسلام كلٌّ متكامل.

أخلاقيات البيت في الإسلام تسير في خط تكاملي ارتقائي يسعى إلى التسامي بالمجتمع، فقيم الدولة امتداد لقيم الأسرة، فالتربية الأخلاقية التي يتلقّاها الفرد داخل الأسرة أصل، ومنبع لجميع الأفعال المستقبلية، فهي المدرسة الأولى التي يستقي منها المسلم ثقافته التشريعية (القانونية)، ونقصد بها الثقافة التي تحدّد علاقته بنفسه، وعلاقته بغيره، حسب نوعية النسبة، والرابطة، فالايتيقا الإسلامية تسير في خط عمودي يبدأ من القمة إلى القاعدة، والعكس.

فالمبدأ الأول يجمع القمة مع القاعدة في رابطة معلولية، يكون الخالق سبحانه وتعالى، أصل ومصدر الوجود، فهو الأوّل الذي استمدّت منه جميع المخلوقات وجودها العيني، وبرحمته المطلقة كان الوجود، فلم تكن الحكمة من إيجاد الخلق، لحاجة الخالق لها، بل لحاجة الخلق له، فالرحمة أصل رئيس في الوجود، فكان الكون الجميل، البديع، أرضية أولى، وقاعدية للسعادة البشرية، فالعلاقة بين الأول، أو العلة المصدرية، والمخلوقات ليست من قبيل غائية المصلحة، بل هي من جنس الغائية الذاتية، فالكائن وجود مكرّم، وشريف، بالأصالة، ولا يستمدّ أصالته من غيره من المخلوقات، بل هو شريف بمدى قربه من خالقه، فعظمة الإنسان مستمدّة، من ربوبيته لنفسه، والقدرة على إدارتها.

ومجال الإدارة والتسيير في الثقافة الإسلامية لا يقتصر على جوانب جزئية، مستقلة انطولوجيا على بعضها البعض، بل يكون التكامل عنوانا شاملا لجميع الحقول التي تتعلق بها الإدارة والتسيير، فالكلية الإسلامية ليست مجرد تشدق، وحذلقة فكرية يستعيض بها رجال الفكر في الإسلام عن الوضعية التي يشعر فيها المسلم بالنقص، والقزمية أمام العملاق الغربي، وسنكتشف من خلال البحث الروابط التي تتقاطع فيها إدارة البيت الصغير مع البيت الكبير الذي هو الدولة الإسلامية، التي اجتهد الغرب في سلبها البعد المدني في وجودها.

ايتيقا التسيير:

الدلالة القيمية التي يحملها لفظ التسيير تضعه في مفترق طريقين: العلم، والفن، فهو من الناحية التقريرية جملة قواعد، وأحكام تنظيمية، ثابتة، تملك معايير منطقية، تمنحها الحجية، مرتبطة بطبيعة الموضوع، حيث أصبح علما قائما بذاته، من حيث موضوعه، وآلياته المنهجية، ونتائجه المستخلصة.

أمّا البعد الفنّي في التسيير، فهو ارتباط القواعد التنظيمية بقيم أخلاقية، ومرجعية نظرية تعكس الانتماء الثقافي لصاحب النظرية، فتفسير المجتمع الإنساني في الرؤية الماركسية طبقا لمبادئ المادية الجدلية . والذي ينصُّ على المسار الثابت الذي تعيشه البشرية في سبعة مراحل(المشاعية، العبودية، الإقطاعية، البورجوازية، الرأسمالية، الاشتراكية، الشيوعية) . لا ينطبق على المجتمعات الشرقية عموما، والمجتمع الإسلامي خصوصا على قاعدة الخاتمية التي ميّزت الرسالة الإسلامية، قال تعالى:"الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**1**"

[1] المائدة الآية :3

الخاتمية كمال للشريعة، وليس حظوة إلهية للنبيّ الأكرم محمد (ص)، فالحركة الإنسانية، بكل إمكاناتها، تجد في الإسلام المبدأ، والمسار، والحلول، لأن الفعل الإنساني تقدير قبل القضاء، وكلّ تقدير يفترض صعوبات، وعوائق، فالحلّ لكل ممكن، ومستشكل قائم في الشريعة الإسلامية.

وسنأخذ البيت نموذجا لاستنطاق الحكمة المحمدية في الإدارة، والتي نلمس من خلالها إمكانية حيازة الكمال الإنساني، فالبيت كمؤسّسة اجتماعية، وحدة أولية في بناء المجتمع المدني، ومعيارا لقياس إمكانيات الجماعة في الحياة المدنية، حيث تكون العادات، والتقاليد المتعارف عليها عندهم وثيقة في معرفة واستنباط الحكم القيمي.

بداية ينبغي الإقرار، والتصريح بطبيعة البيت، أو المنزل في السنة النبوية، فهو مستودع الحب، والمودة، والسكن، يقول تعالى :" وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً. إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون"[1]، فالأسرة تحاكي العضوية الفردية، من حيث تضافر جميع الوظائف في الحفاظ على التوازن داخل الكائن، والإخلال بمهمة ما يستلزم الخلل داخل العضوية، والذي ينعكس سلباً على المحيط الخارجي، جاء في الحديث الشريف: " مَثَلُ المؤمنين في تَوَادِّهم وتراحُمهم وتعاطُفهم :مثلُ الجسد، إذا اشتكى منه عضو: تَدَاعَى له سائرُ الجسد بالسَّهَرِ والحُمّى"[2].

ويمكن القول أن المهام الرئيسة للأسرة الإسلامية تتمثّل في تربية النموذج، وتكوين جيل قادر على مواكبة التقدّم الإنساني على قاعدة الحركية والتغيُّر التي تحايث الطبيعة الإنسانية، فالاستقرار، والسكونية ليست صفة حقيقية عند البشرية، بل هي صفة اعتبارية مؤقّتة، فالأصل في الوجود السير في مسار عمودي، ارتقائي للتقرب من الكمال الإلهي، والذي يجد في شخصية النبيّ الكريم (ص) مثالا، وأسوة حسنة للحصول على كمال نسبي يؤهّله لبلوغ مرتبة القرب، المقام الذي تكون فيه الرغبة الحيوية عند الإنسان غائبة مقارنة مع سعادة المعرفة.

أما موقع الوظيفة الاقتصادية في الأسرة الإسلامية فيكون في مقام الضروري، واللازم، لأن تحقيق الغاية التربوية للأسرة لا يتحقّق اعتباطا بل يحتاج إلى مقوّمات اقتصادية، فالفقر، والحاجة لا تنتج شخصية نموذجية، ومتكاملة، فالاحتياج، وإن كان طبيعيا عند الإنسان فإنّه يشعر الفرد بنقصه ومحدوديّته، فحاجة العباد إلى الله الغنيّ الحميد مسألة حقيقية، والتعبير عن النقص في مقابل الكامل، يتعالى على الشعور بالنقص أمام الناقص الإنسان، لذا وجدنا لزاما علينا التنبيه إلى الإمكانيات الاقتصادية التي كان يملكها النبي الكريم(ص)، وقد أوردها الباحث عبد الفتاح السمّان في أطروحته لنيل شهادة الدكتوراه بشكل تفصيلي[3].

أثبت الباحث عبد الفتاح السمّان بحجج نقلية، وعقلية القدرة المالية التي كان يملكها النبي الأكرم (ص)، وانطلاقا من هذه القاعدة يتسنّى لنا البحث في البعد الايتيقي الأخلاقي الخاص الذي ساير إدارة النبي (ص) لبيته ماليا، لأن القول بفقر النبي (ص) يضعنا في إحراج منطقي وتاريخي، إذ كيف يمكننا بيان إدارته الاقتصادية للبيت في ظل أدلّة تنفي إمكانياته المالية؟!

السنة النبوية وإدارة البيت المالية:

[1] الروم الآية: 21

[2] أخرجه البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير.

[3] عبد الفتاح السمان ، الاقتصاد النبوي دراسة موضوعية في السيرة المالية للنبي (ص) رسالة ماجستير 2010

في البداية قبل الحديث عن إدارة البيت المالية ينبغي أوّلاً البحث في الثروة التي تملكها الأسرة، فلا وجود لاقتصاد في غياب الثروة، ولا مُلكية دون ثروة، وعليه كان لزاما علينا المرور على مصادر الثروة النبوية، والتي يتقاطع فيها بني البشر مهما كانت مللهم ونحلهم، مع فروق جزئية في ضوابط الميراث، وإدارة الملكية، أمّا إذا اقتصر المجال على المؤمن بالعقيدة الإسلامية، فسيكون الاقتداء بسيرة سيِّد المرسلين، مقدِّمة للفوز في الآخرة، وفي مزرعتها.

مفهوم الإدارة المالية:

مجموعة الدراسات التي تهتم بالبحث عن طرق الحصول على التمويل، وعن الأساليب التي تكفل توزيع عادل للثروات، وهو أيضا الفن والعلم الذي يتعلق بإدارة الأموال، إذ لا يستطيع أحد ممارسة النشاط دون توفر الأموال اللازمة لذلك، وسنقترح مفهوما لإدارة السنة النبوية المالية: "جملة الأحكام الفقهية، المنظِّمة لمصادر الدخل الفردي في الإسلام، ولأساليب توزيعه، في جميع المؤسسات، فردية عاطفية مثل الأسرة، أو اجتماعية مدنية، أو عسكرية.." فالسنة النبوية لم تهمل هذا الفن من الإدارة قط، بل كان على رأس اهتمامها، حيث نجد الكثير من النصوص التي تشيد بضرورة الإنفاق، فعن سعيد بن يسار عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهمّ أعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر اللهم أعط ممسكاً تلفاً.[1]

والبحث عن قواعد الإدارة النبوية للمالية يشترط قراءة إحصائية ودقيقة للسنة النبوية، وما يمكن استنباطه من السنة النبوية بخصوص الإدارة المالية مجموعة من الخصوصيات نجملها فيما يلي:

الكونية:

تطرح مسألة الكونية Universalité اعتراضات عدة في الساحة الفكرية، فالقول بكونية الفكر الغربي على قاعدة عالمية الأفكار التي طرحها فلاسفته، يلغي في نظر بعض المثقفين العرب كونية الثقافة الإسلامية، فهي مشروطة بعقيدة معينة، واتجاه إثني معين، ولكن النظر بعين الموضوعية إلى السنة النبوية كجزء من الثقافة الإسلامية يكشف لنا عن البعد الكوني فيها، والإدارة المالية لا تتقيد بخاصية إثنية أو عقدية معينة بل هي عامة قابلة للاقتباس، والتطبيق حتى من قبل ملل أخرى، وجماعات لا دين لها، لأن الاعتبارات التي تتأسس عليها السنة النبوية في الإدارة المالية مشتركة بين بني البشر، فالطبيعة البشرية بحيثياتها الحيوية والثقافية تتقاطع في الميل نحو تحقيق السعادة، والأمل في العدل كمطلب في التسيير والإدارة، والسنة النبوية تقوم على رؤية كونية توحيدية وواحدة لجميع بني البشر، على قاعدة خاتمية الرسالة، وعلى إلهية الشريعة، إذ تستمدّ أصولها ومبادئها من الذكر الحكيم : " إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون[2]"

الأخلاقية:

إن سعي فن الإدارة المالية إلى حيازة البعد العلمي والموضوعي يفترض منه ابتعاد البحث عن مقاييس أخلاقية، فتحقيق الربح، ونيل السعادة لدى الأفراد والجماعات مطلب أساس في قوانين الإدارة المالية، ولكن السنة النبوية كمعلم، ومرجعية للاقتصاد الإسلامي تقوم على أصول أخلاقية تتعالى فوق قيم الغرب الأخلاقية، والالتزام بالقيم الأخلاقية في المعاملات

[1] أخرجه مسلم في كتاب الزكاة، باب: المنفق والممسك. رقم :1010

[2] سورة الحجر الآية:9

الاقتصادية من أهم الخصوصيات التي تقوم عليها الحياة الاقتصادية، ومن أهمها الأمانة والصدق، والسماحة في المعاملات، والاعتدال، والقناعة في الربح، والتيسير على المعسر، والتصدّق على المفلس، والتعاون على البر، والالتزام بروح الأخوة والإيثار.

والأخلاق الإسلامية غيرية، تضع مصلحة الآخر قبل مصلحة الفرد، فهي أخلاق إيثار، وليست أثرة، فالإحسان ليس سلعة تجارية للتبادل، فالتعامل مع الناس يقوم على مرجعية شرعية وأخلاقية، فعين الرؤيا إلى الآخرين تكون بالنظر اليهم على أنهم آيات الله في خلقه، وإكرامهم إكرام لخلق الله، وهو المفصود في الآية بالقرض الحسن، قال تعالى:" من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم "[1]

تدفع أخلاق الإسلام المسلم لمساعدة المحتاج دون طلب منه، ودون اشتراط مكافأة علي إحسانه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ ، إِلاَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَة، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ، عَزَّ وَجَلَّ، فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُه، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ.[2]

العدالة:

العدالة فضيلة أخلاقية عليا، تقوم على مبادئ كثيرة، أهمها المساواة، القائمة على مبدأ الحاجة والكفاءة، والإسلام كعقيدة سماوية تسعى إلى تحقيق العدل بين الأفراد، وبين الجماعات، فتوزيع الحقوق المالية على أفراد العائلة، وعلى ذوي الحقوق الوالدين، وبيت مال المسلمين، والفقراء، والمساكين، يقتضي من المؤمن الاطلاع الدقيق على الأحكام الشرعية الضابطة للنسب، والحصص تبعا لنسبة المال المملوك، والعدل في المعاملات .كما يحده ابن رشد . إنما هو مقاربة التساوي، ولذلك لما عسر إدراك التساوي في الأشياء المختلفة الذوات جعل الدينار والدرهم لتقويمهما: أعنى تقديرها، ولما كانت الأشياء المختلفة الذوات: أعنى غير الموزونة والمكيلة العدل فيهما إنما هو في وجود النسبة، أعنى أن تكون نسبة قيمة أحد الشيئين إلى جنسه نسبة قيمة الشيء الآخر إلى جنسه، مثال ذلك أن العدل إذا باع إنسان فرسا بثياب هو أن تكون نسبة قيمة ذلك الفرس إلى الأفراس هي نسبة قيمة ذلك الثوب إلى الثياب ، فإن كان ذلك الفرس قيمته خمسون فيجب أن تكون تلك الثياب قيمتها خمسون، فليكن مثلا الذي يساوى هذا القدر عدها عشرة أثواب، فإذاً اختلاف هذه المبيعات بعضها ببعض في العدد واجب في المعاملة العادلة أعنى أن يكون عديل فرس عشرة أثواب في المثل "[3]. ويبقى العدل المطلب الرئيس في المجتمع المدني، والأخلاقي في العقيدة الإسلامية.

إدارة مصادر الدخل (الثروة):

---

[1] سورة الحديد الآية :11

[2] أخرجه مسلم في صحيحه رقم :6952

[3] أبي الوليد محمد بن رشد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ، دار الجيل ، الجزء الثانى ،كتاب البيوع ، الباب الثاني في بيوع الربا، الفصل الأول: في معرفة الأشياء التي لا يجوز فيها ... 1989م ، ص 222.

العمل: يتّفق علماء الاقتصاد على حدّ العمل بالفاعلية الإنسانية الإلزامية الهادفة لإنتاج أثر نافع، فهو الجهد المبذول من طرف الإنسان لتحويل عالم الأشياء إلى عالم مؤنسن، وعلى اعتباره أشرف، وأعلى المقدّمات الموجبة للثروة، فأداء العمل، وإتقانه مطلب أخلاقي رئيس في العقيدة الإسلامية، وكثرة النصوص، وتنوّعها، في القرآن الكريم، وفي السنة النبوية دليلا على أهمية العمل.

العمل ينقل المرء من عالم القيد والاستلاب إلى الحرية، وقد قام الفلاسفة بعد ذلك ببيان ذلك، والتنبيه على أهمية العمل في تحرير الإنسان، ولكن مراجعة السنة النبوية تكشف على التأكيد، والحث الذي بلغ مقام الوجوب على الاجتهاد في كسب الرزق، عن طريق العمل الفاعل، والمنتج، على قاعدة التمييز بينه، وبين الخدمات مثل التجارة، وغيرها من الخدمات، يقول الرسول (ص):" ما أكل أحد طعاماً قط خير من أن يأكل من عمل يديه، وإن نبيّ الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده."

فالتعامل مع الطبيعة مباشرة، باستخدام عمليات مختلفة من تفكير، وتدبير، وتحويل، تفتح آفاقا متعدّدة أمام بني الإنسان، وأهمها القضاء على كل إمكانية في الاستعباد والاستغلال من طرف الغير، وسنورد بعضا من الأحاديث النبوية التي تحث على العمل، فالعمل في السنّة النبوية إجمالا واجب مقدّس.

عن أنس بن مالك أن رسول الله قال: "ما من مسلم يزرع زرعاً أو يغرس غرساً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة."[1]

يتجلّى في النص الحثّ، والإرشاد النبوي على مباشرة العمل بعيداً عن القيود الذاتية، والمجتمعية، فتقييد الغاية من العمل عند المؤمن، بتحقيق الربح، والمصلحة الشخصية، يبعده عن خصوصيات المؤمن، الذي رسمته السنّة النبوية الشريفة.

والتعامل مع الطبيعة تسخيراً وتحويلا هو الأصل، والمرجع في الاقتصاد البشري عموما، ولذا نجد النبي الكريم محمد (ص) يؤكّد كثيرا على العمل المنتج، قبل التأكيد على الخدمات مثل التجارة، فعن أبي هريرة (ض) عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : كان داوود عليه السلام لا يأكل إلا من عمل يده "[2].

وسيرة الأنبياء عليهم السلام وثيقة تاريخية، وتربوية، لا تنفصل عن المشروع الإسلامي ككل، لأن الحديث عن نبي الله داوود عليه السلام يرتبط بالتعامل مع الطبيعة، ولحظة الحضارة البشرية، والتي تؤرّخ باكتشاف الحديد، أو بلغة القرآن الكريم بتليين الحديد لداود عليه السلام، فالنبي نموذج تربوي، وأخلاقي، أرسله الله سبحانه، وتعالى لعباده لإنارة طريق المجهول أمامهم، فالتعامل مع الطبيعة لا يكون بقصد تحقيق الاكتفاء الذاتي من الطعام، أو القوت، بل الأصل في معرفة قوانين الطبيعة، وتسخيرها لخدمة البشر، فالخضوع للطبيعة كما يقول ديكارت يكون بقصد السيطرة، وليس استسلاما، فالعلم قوّة الإنسان أمام الطبيعة.

وتظهر الأبعاد الأخلاقية للعمل في مستويين، فردي، وجماعي، فالاكتفاء الذاتي، يقعد للشعور بالكرامة، والعزّة، التي يشترطها الإسلام في المؤمن، فعن أبي هريرة (ض) أن رسول الله (ص) قال: المؤمن القوي خير وأحبُّ إلي الله من المؤمن

[1] رواه البخاري.

[2] رواه البخاري

الضعيف[1]. وفي حديث آخر عن أبي عبد الله الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لأن يأخذ أحدكم حبله ثم يأتي الجبل فيأتي بحزمة من حطب على ظهره، فيبيعها فيكفُّ الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه"[2].

تربية المؤمن على العمل ركن رئيس في السنة النبوية، وقد تداول بعض المسلمين كثيرا من أقوال فلاسفة الشيوعية في العمل متناسين التراث النبوي، ومن الأقوال المتداولة، عند هؤلاء الأنصاف من المثقفين، والتي نجد مرجعيتها الفكرية في كثير من أحاديث النبي الأكرم:" لا تعطيني سمكة بل علمني كيف اصطاد" وهي مقولة من كلام الزعيم الصيني ماوتسي تونغ، والأحاديث التالية تغني اللبيب في وضوح معانيها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله لان يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير له من أن يسال أحدا فيعطيه أو يمنعه."[3]

وعن المقداد بن معد يكرب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:ما أكل احد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يديه، وأنّ نبي الله داوود عليه السلام كان يأكل من عمل يده[4].

وقد كان صلى الله عليه وسلم يرعى الغنم لاهل مكة، فقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال:"ما بعث الله نبياً إلا ورعى الغنم، قالوا: وأنت يا رسول الله ؟ قال: نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة.[5]

أما البعد الجمعي للعمل فيظهر في إمكانية المالك لقوى الإنتاج كما يصطلح عليه في علم الاقتصاد على كفالة وإعالة ذوي الحاجات في المجتمع من فقراء ومساكين، ويكون التكافل الاجتماعي بين عناصر المجتمع، ذلك الجسد الواحد كما هو مأثور في السنة النبوية الشريفة، ومن اللطائف المضمرة في السنة العطرة، فكرة الجسد الذي يعبر به الرسول محمد (ص)عن الجماعة، فالتمثيل بالجسد الحسي كان بقصد التعبير عن الشخصية المجرّدة التي تعرف بها الدولة في علم السياسة.

التجارة:

النظر بعين قيمية إلى التجارة كنشاط اقتصادي يدرجها ضمن قطاع أقل شأنا من العمل المنتج كنشاط، وهو قطاع الخدمات، يكون الفاعل وسيطا بين منتج، ومستهلك، أو مالك لثروة عينية عقارية، أو حيوانية، فالملكية نتاج لعلاقة جدلية، وجهد مبذول، أما التاجر فيتوسط بين المالك والمستهلك.

والسيرة النبوية توثق لنا أخلاقية التجارة، فممارسة النبي الأكرم (ص) للبيع والشراء، إضفاء لمبدأ المشروعية الأخلاقية، والقانونية لظاهرة التجارة، وإن كانت الايتيقا، والالتزامات الأخلاقية الشرط الرئيس في الممارسة التجارية، عملا بقوله صلى الله عليه وسلم:" التجار فجار إلا من برّ وصدق" .

[1] رواه مسلم
[2] رواه البخاري
[3] متفق عليه
[4] رواه البخاري
[5] رواه البخاري، كتاب الإجارة باب رعي الغنم على قراريط . رقم 2143

وتقوم ايتيقا التجارة على مشتركات أخلاقية إنسانية، تتأسس علة قاعدة أخلاقية مرجعية، وهي أن تحب لغيرك ما تحب لنفسك، ولو وجد في السنة النبوية الشريفة غير الحديث لكفى، والبحث عن تخريج لهذا الحديث نعتبره خروجا عن جادة الصواب، إذ يكون الإنصات إلى الفطرة الإنسانية معيار ايتيقيا لصحة أو خطأ الممارسة أو الفعل الذي نقوم به أو نفكر فيه إذا كنا في حالة موازنة أولية، فمكونات الفطرة الايتيقية واحدة عند كل البشر، فما نرغب فيه يرغب فيه غيرنا، وما ننفر منه ينفر منه أيضا، والقاعدة طبيعية عضوية في ذلك إذ أن الشعور الانفعالي طبيعة واحدة عند الكائن سواء كان بشريا أو حيوانيا، وعليه فالتشريع يكون من الداخل أي منطلقا من النفس، ولكن ليست النفس الأمارة بالسوء أو النفس الذائبة في عالمها الشخصي، وأنانيتها المفرطة، فمرد الغش الذي يمارس ضد الغير هو النرجسية الذاتية التي تمنح شرعية الحصول على مكاسب، فتعليل التجار لضرورة اكتساب الربح، على قاعدة ضياع الإنتاج، الذي يستلزم ضياعا للثروة، وإدراج المالك ضمن شريحة المعدمين، وهذه الفكرة أو الوضعية تمنح تبريراً نفسياً للمالك على إتّباع طرقاً ملتوية غير أخلاقية للحفاظ على الذات المالية، إذا جاز التعبير.

والمساءلة الأخلاقية لقضايا الأخلاق، من حيث أصولها المرجعية، ومبادئ المعيارية فيها يكشف عن رغبة الإنسان في اكتشاف علل الكونية، والوحدة داخل عالم التغاير والتضاد، فالفلسفة الأخلاقية محاولات نظرية للبحث عن كونية أخلاقية، والسنة النبوية تلخص ذلك في المبدأ الأساس: عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به.

الميراث:

مظهر من مظاهر التكافل الاجتماعي الذي تتضمنه الشريعة الإسلامية، فهو تقنين، وتشريع يضبط الحقوق المالية للأفراد داخل الأسرة الواحدة، أو داخل العائلة الواحدة، فهو إدارة إسلامية بامتياز لأموال المسلم بعد وفاته، فالذمم المالية في الإسلام تختلف عن التشريعات المدنية الغربية، والملاحظ عليها المنحى الأخلاقي، ومن أهمّ المشاعر الأخلاقية الحاصلة في الميراث، شعور المالك باستمرارية رسالته التي وجد من أجلها، فعمل ابن آدم ينقطع بهلاكه إلاّ من ثلاث كما هو مأثور عن النبي الأكرم (ص) علم ينتفع به، وصدقة جارية، وولد صالح يدعو له، وما يرثه الفرد عن والديه، مسؤولية أخلاقية قبل أن يكون منفعة مالية، فتقنين الإسلام للميراث تسيير أخلاقي قبل أن يكون اقتصادي، وإن كان الاقتصاد في الإسلام توجيه المال والإعمال وفق القيم الأخلاقية الكونية.

والميراث كمورد مالي يمنح الفرد منطلقا اقتصاديا جديدا يؤهله لاكتساب مكانة أخلاقية وأدبية في المجتمع خصوصا إذا كان الالتزام الأخلاقي المؤسّس على الشريعة الإسلامية معياره الذي يقيس به أعماله ومشاريعه الاقتصادية، والفرق بينه وبين منتوج العمل أن الأخير يشعر الفرد بمسؤولية فردية قد تمنحه الاستقلالية المالية عن غيره، ويصبح في الشرع الإسلامي مكلّفا بكفالة ورعاية والديه، أما وضعية المسلم المالية بالميراث، فمختلفة حيث يصبح الرأسمال الفردي للولد امتدادا لرأسمال والديه، وعليه تتراكم المسؤولية وتتداخل فيكون الهالك في غيابه حاضرا في ماله الذي يحضر في رأسمال ورثته.

إدارة التوزيع (الإنفاق المنزلي):

على قاعدة اعتبار الشريعة الإسلامية، رسالة الختم، والعقيدة التي اكتملت جميع الشرائع فيها، فالبعد التقريري في الشريعة الإسلامية لا يمثّل إلا عشر المقاصد الشرعية، ونقصد بها الأحكام الشرعية التي كانت ظرفية، أي مقيّدة بزمان، ومكان، وأشخاص بعينهم، ولكن المقاصد، والإمكانات التي تضمنتها أكثر، فهي مطلقة، لا تنحصر بمكان، أو بزمان، فهي كلّية، وشمولية، ومتعالية، من حيث الانطباق، فالثقافة الغربية ـ التي تجتهد منذ القدم في طرق محاربة الإسلام، باستخدام جميع أنواع الأسلحة، المادية والمعنوية ـ عاجزة عن توفير آليات السعادة، والسكينة، فهي ثقافة، ودولة الرفاه، بمعناه المادي فقط.

والنظر بعين الموضوعية إلى الثقافة الاقتصادية في الإسلام تكشف لنا عن المنحى الإيتقي قي تسيير البيت، ومرجعيتنا في القول بالايتيقا عائدة إلى أخلاقية الإسلام العالية في التعامل مع أفراد البيت في توزيع المال والدخل، فالمجتمع الغربي يملك أخلاقيات توارثها من الموروث المسيحي، ومن الوعي الأخلاقي الذي ساهم فيه المفكرين في الغرب، والذي يتقاطع مع التراث الإسلامي في الأخلاق، على قاعدة التزاوج الثقافي، من ناحية، والحرب الثقافية التي مارسها القشتاليون ضد الموريسكيين في الأندلس من ناحية أخرى.

والتوازن الذي نجده في إدارة الرسول (ص) للبيت الإسلامي يكشف عن نظرية دقيقة في الاقتصاد، وكل خلل مترتب عن تصور، أوفهم للحديث نبوي يلزمنا بمراجعة دلالة الحديث، ومدى مطابقته للحقيقة، وليس التشكيك في دقة الإدارة، وأهل الاختصاص في علم الحديث يدركون الملابسات التي صاحبت الرواية، والرواة.

يدخل الإنفاق ضمن الالتزام بالواجبات اتّجاه الأفراد الداخلين في نطاق مسؤوليتنا، وهو بذل المال، والأصل الذي يقوم عليه هو طلب القرب الإلهي، فهو تسيير للأموال فيما يرضي الله، ويأخذ مطلبين، الإلزام، والتطوُّع، ويراد بالإنفاق الواجب إنفاق الإنسان فيما افترض الله عليه وألزمه بأدائه، أما الإنفاق التطوعي فيؤديها المرء تبرُّعا من تلقاء نفسه لم يوجبها عليه الشرع، وبناء عليه فإن الإنفاق يشمل إنفاق الإنسان على نفسه و على من تلزمه نفقتهم كالزوجة، والأولاد، والوالدين، والأقارب بشروط مبينة في السنة النبويّة، وسنحاول في المحطة الموالية التعرُّض لمظاهر الإنفاق، وإدارة المال المنزلي في السنة النبوية العطرة الشريفة.

الضروريات:

القوت: يمكن الاستئناس ببعض نتائج مدرسة الغرائز التي تصنِّف الغرائز البشرية إلى ثلاث غرائز رئيسة تتفرّع عنها جملة من الغرائز الفرعية، والتي هي غريزة الحفاظ على البقاء، وغريزة الحفاظ على النوع، وغريزة القطيع، وتتفاوت أهمية الغرائز في قوة التأثير على الوجود الإنساني، فالصراع من أجل البقاء، أو كما يعبِّر عنه أحد الفلاسفة الخوف من الموت هو الذي حرّك الإنسان نحو العمل، وتشكِّل لحظة التهديد التي تتعرّض فيها العضوية للانقراض، منعرجاً خطيرا في التمرّد على القيم، والشرائع.

ونجد في معاني القوت دلالات كثيرة تظهر أهمية القوت في الحفاظ على مقوِّمات الوجود للعضوية، والرجوع إلى السياق المعجمي يؤكِّد ذلك فالقوت: ما يقوم به بدن الإنسان من الطعام وقُتُّهُ فاقْتَاتَ كرزقته فارتزق.. و دلالة قوت قْوَات القُوتُ رزق ما يأكُلُه الإنسان، ويعيش به، وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا، وكاسب القُوت من يكون دخله هو المصدر الرئيسيّ لإعالة من يعتمدون عليه في معيشتهم.

كان النبي صلى الله عليه وسلم يخطط للكسب، ويتحرّى أسبابه، إذ لا يعقل أن يحث المؤمنين على فعل، ويتقاعس عنه، وهذا أمر مستحيل، فهو النموذج الكامل والمتكامل للبشرية، والسنة النبوية غنية بالنصوص، ما روى عن عمر (ض) أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يبيع نخل بني النضير ويحبس لأهله قوت سنتهم" [1]

ويستشفّ الأستاذ السمان من الحديث ثلاث معالم، وهي: " أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يملك الفيء من ارض بني النضير، فلم يتصدّق بماله كله، وكان صلى الله عليه وسلم يبيع ويشتري، يعني انه كان يزاول التجارة بقصد استمرار الكسب والعمل، كان صلى الله عليه وسلم يتدبر عاقبة أموره، فيدّخر لسنة، وهذا ملمح هام جدا، فالرزق لا يضمن كل يوم لهذا وجبت الحيطة للغد..[2]

ويتجلّى البعد الأخلاقي في فلسفة الادِّخار، ادخّار القوت، الذي يقوم به الإنسان، ويستمرّ به في الوجود، والتي تدخل ضمن مجال مسؤولية الفرد على أهل بيته، فإدخال العيال ضمن دائرة الفقر، إخلال بمبدأ المسؤولية، قال النبي (ص):" كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت[3] "

التقصير في توفير القوت اليومي للعيال يدخل المعيل في دائرة الإثم، فعليه من الواجبات الأساس لمسئول البيت العمل على كفاية العيال من هذه الحاجات الطبيعية، والمبرِّرات تكون غير مقبولة في نظر المشرِّع، ولذا ينبغي تخصيص حصة القوت في ميزانية البيت، وتوزيعها بشكل عادل تأخذ فيه جميع الحاجيات والضروريات نسبتها من الميزانية العامة، فالبيت ليس مؤسسة عاطفية، واجتماعية، فحسب، بل أيضاً مؤسسة مالية، واقتصادية، ونجد في السنّة النبوية الاهتمام بالتربية الأخلاقية على إدارة البيت المالية، والنصوص النبوية تربط نتائج هذا التسيير، بمستقبل الوالدين خصوصا، والعائلة ككل، في مستوى الدنيا، وفي البرزخ، وفي العالم الآخر، فعمل ابن آدم لا ينقطع عند وفاته، بل يستمر بصلاح أبناءه.

عن أبي هريرة (ض) أن رسول الله (ص) قال :إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له."[4] وعن ثوبان (ض) قال: قال: رسول الله ص:" أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله، ودينار ينفقه الرجل على دابّته في سبيل الله، ودينار يُنفقه على أصحابه في سبيل الله."[5]

يرتبط الإنفاق المنزلي في السنة النبوية بالأخلاق، بجميع مستوياتها المدنية والميتافيزيقية.

والفرق بين ايتيقا الغرب ايتيقا الإسلام أن مسئول الأسرة في السنة النبوية ملزم على الإنفاق على من يعول، ومن هم تحت نفقته، حتى ولو تجاوز الأفراد سنّ الرشد، فالبنت في التشريع الإسلامي، باقية في مسؤولية المعيل، سواء كان والدا أو أخا أو زوجا، أما الايتيقا الغربية، فمسؤولية المعيل تنتهي، ببلوغ الأبناء سواء كانوا ذكورا أو إناثا سن الرشد، والوالد ليس ملزما بالإعالة، أو الإنفاق، كما أن مسؤولية الأبناء تسقط عن إعالة والديهم بمجرد البلوغ مهما كانت حاجة الوالدين.

---

[1] أخرجه البخاري في صحيحه كتاب النفقات، باب حبس نفقة الرجل قوت سنة على أهلل، رقم (5042)

2 عبد الفتاح السمان، الاقتصاد النبوي دراسة موضوعية في السيرة المالية للنبي (ص) مذكرة قيد النشر

[3] أخرجه أبو داود في سننه كتاب الزكاة، باب صلة الرحم رقم 1694، واحمد في مسنده 36-11 واخرجه مسلم في باب الزكاة رقم 996

[4] أخرجه مسلم كتاب الوصية باب ما يلحق الإنسان من ثواب بعد وفاته.

[5] أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الزكاة باب فضل النفقة على العيال ..رقم 994

الروابط الأخلاقية بين الأبناء والوالدين في الشرع الإسلامي مسألة مقدّسة لا تنال منها الكفاية، فإكرام الوالدين، وصلتهما تتعالى فوق الاعتبارات الاقتصادية، فغنى الوالدين لا يلغي المسؤولية، وقد صنّف الشرع واجباتنا نحو الوالدين بعد واجبنا نحو الله، فإذا كان الالتزام بالواجب نحو الله على قاعدة إكرامنا بالخلق، فإن الأصل في الواجب نحو الوالدين يقوم على علاقة الإيجاد والتربية.

الطعام: المنزل أو السكن مستودع الطبيعة الأولى، وفيه تتحقَّق الطبيعة العضوية للكائن الحي، فاستمرارية الوجود، وغريزة البقاء تدفع الإنسان نحو البحث عن الغذاء، ومن أهم واجبات المسئول الأول عن إدارة المنزل توفير الغذاء لأفراد عائلته، فالعمل من أجل تحقيقه يكون بعديد من الأشكال أهمها الزراعة، والتعامل مع الأرض، وقد بيّنت السنة النبوية ضرورة العمل، والتعامل مع الأرض في توفير الغذاء.

ويحتوي الغذاء الكامل على جميع العناصر الغذائية وبكميات مناسبة لاحتياجات الجسم حسب عمر الشخص، ونوعه، ونشاطه، والهضم، والامتصاص، ويتمّ تناولها من قبل كائن حي، واستيعابها من قبل خلايا الكائن الحي في محاولة لإنتاج الطاقة، والحفاظ على الحياة، أو تحفيز النمو، بحيث يكون متوازن، ولذلك فالغذاء المتوازن يجب أن يحتوي على العناصر الغذائية الأساسية، البروتينات، والكربوهيدات والدهون والفيتامينات و العناصر المعدنية والماء.

وتوفير العناصر الرئيسة من الغذاء يقتضي إعداد أو اتِّباع السبل الكفيلة لتحقيقه، فالزراعة، والرعي، من أهم الطرق في ذلك، وسنلاحظ من خلال قراءة السيرة النبوية استنطاق الاهتمام النبوي بظاهرة النظام الغذائي، فالنظام يؤسِّس للتوازن داخل العضوية، وتنويع الغذاء.

السكريات من المصادر الأساس للطاقة، وهي بالإضافة إلى ذلك توفر بعض مواد البناء لأنسجة وأعضاء الجسم، ومن أهم مصادرها الخضار والفواكه والحبوب، ونظرا لأهمية المواد السكرية يستوجب أن يحصل الإنسان على كميات كافية منها يوميا، وعليه نجد السنة النبوية تؤكِّد لنا على أهمية السكريات في بناء جسم متوازن، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الحلواء والعسل[1]. وعن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه قال:"رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يأكل الرطب بالقثاء[2].

توفير غذاء جيد، وصحي ومتوازن، واجب ومسؤولية مدنية تقع على عاتق ربّ البيت، فسلوك النبي الكريم (ص) مرجع لسلوكيات المسلم، فحبه صلى الله عليه وسلم للعسل، وللحلوى لا يعني الإفراط في أكلها كما نفعل حاليا، بل ينبغي تناول المستلزمات الضرورية بنسبة دقيقة، وعليه نجد الحثّ النبوي على طلب العلم، وهذا لا يتحقّق إلا في ظلّ تكامل بين مؤسسات اقتصادية تتكفل بتوفير الغذاء، ومستهلك واع لما ينبغي أن يأخذه من طعام.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:" كان أحب الطعام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الثريد من الخبز، والثريد من الحيس"[3]، والحَيْسُ تمرٌ وأَقِطٌ، وسمنٌ تُخلَط وتُعجَن وتُسوَّى كالثَّريد.

[1] أخرجه البخاري في الصحيح كتاب الأطعمة باب الحلواء والعسل رقم 5115 ومسلم قي الصحيح كتاب الطلاق رقم 1474

[2] أخرجه البخاري في الصحيح كتاب الأطعمة باب الرطب بالقثاء رقم 5124

[3] أخرجه أبو داود في السنن كتاب الأطعمة باب أكل الثريد رقم : 3783

وفيما يتعلق في أهمية البروتينات في بناء الغذاء المتوازن، نجد في السنة النبوية تفصيل لبعض طعامه صلى الله عليه وسلم، ومنها: عن أبي هريرة صلى الله عليه وسلم قال:"كناً مع النبي صلى الله عليه وسلم في دعوة فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهس منها نهسة"[1]. و عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال:" كان أحب العراق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عراق الشاة"[2].

الحديث الثالث: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال:"كان النبي صلى الله عليه وسلم يعجبه الذراع قال: وسُمَّ في الذراع وكان يرى أن اليهود هم سموه"[3].

الحديث الرابع: عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يأكل دجاجا[4].

توفير حاجيات البيت من لحوم حمراء أو بيضاء واجب أخلاقي، إذ نستشِفّ من هذه النصوص التي تكشف عن ميل النبي (ص) لحاجته من اللحوم، والتي لم تكن محكومة، بالرغبة أو شهوة الأكل فقط، بل مقيدة بحاجة الجسم له، فالحفاظ على قوة الجسم وتوازنه مطلب شرعي، وأخلاقي.

أما نوعية الشراب، فينبغي أن تكون متنوعة ومتعددة، حتى تبني مسلم قوي البنية، فالنظام الغذائي الإسلامي نظام متوازن، وإتباع السنة النبوية في الغذاء ، والشراب يحقق تلك الغاية.

الحديث الأول: عن عائشة (ض) قالت :" كان أحب الشراب إلى النبي ص الحلو والبارد[5]

الحديث الثاني: عن ابن عباس ض قال : "كان أحب الشراب إليه (ص) اللبن"[6]

اللبن والسكريات من السوائل الضرورية، واللازمة في بناء عضوية العيال، فتوفير هذه العناصر مجتمعة، وبشكل متوازن يحتاج إلى دخل فردي مقبول، فالأفراد ذوي الدخل المحدود غير قادرين على توفير هذه العناصر بشكل عادي، وعليه فيجب إذن علينا الاجتهاد في العمل لتوفير الضروريات الأساس في بناء عضوية العيال.

ونلمس من الأحاديث التالية وجوب الاهتمام بالكفالة المالية للعيال، حيث يكون الإخلال بها بحجة غير شرعية، دخول في دائرة الإثم الشرعي، ففي الحديث: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْن عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما، قَالَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ[7]، وفي الحديث: عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ "قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَفْضَلُ دِينَارٍ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ، دِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى عِيَالِهِ، وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ الرجل عَلَى دابته فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي سَبِيلِ اللَّه.[8]"

---

[1] أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الأنبياء رقم :3162 وأخرجه مسلم في الصحيح كتاب الإيمان رقم : 327

[2] أخرجه أبو داود في السنن كتاب الأطعمة باب أكل اللحم رقم 3781

[3] أخرجه أبو داود في السنن كتاب الأطعمة باب أكل اللحم رقم: 3782

[4] أخرجه البخاري في الصحيح كتاب الذبائح والصيد باب لحم الدجاج رقم 5198

[5] أخرجه الترمذي في الجامع كتاب الاشربة رقم 1896

[6] أخرجه السيوطي في الجامع الصغيرج2 147

[7] أخرجه ابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه

[8] أخرجه مسلم في الصحيح والترمذي في سننه.

النفقة على العيال مسؤولية مدنية، وأخلاقية، والالتزام بها يشترط شروط رئيسة العقل، والحرية.. والمعرفة تتجلّى في القدرة على التمييز بين الخير والشر، والتي تكون تشخيص المصلحة فيها جزء من مصداق هذه المعرفة، فإنجاب الأبناء ليس وظيفة عضوية بحتة، بل مسؤولية وواجب مدني، وسياسيي، وعقائدي، وحثّ النبي الكريم (ص) على الزواج دليل شرعي في ذلك.

اللباس:

إذا كان العقل يرفع الإنسان بعد الجلوس، فالذي يرفعه قبل الجلوس هو اللباس، وهو الصورة الأولى التي يتلقاها الإنسان من الغير، والسنة النبوية تهتم كثيرا بمسألة العناية باللباس، وإن كان الملمح الخارجي للباس يضع المرء أمام رؤيتين، رؤية تقشفية تطرح أمامنا وجوب العناية والاهتمام بالجوهر، واجتناب المظهر، وهي التي يستشفها القارئ في كثير من النصوص النبوية، والتي ترتبط بمناسبات في رأينا، وبملابسات ينبغي التصريح بها عند كتابة الحديث، فاللباس مظهر من نعم الله، والله يحب أن يرى نعمته على عبده، فالله جميل ويحبُّ الجمال.

وبما أن اللباس ضرورة حياتية، فإنه يستوجب على الكفيل الاهتمام برعاية نفسه، وعياله، لتحقيق حاجياتهم من اللباس، فتخصيص حصص مالية من ميزانية البيت تكون لهذا الشق من الحاجيات، وفي الأحاديث التالية نلمس البعد الوجوبي في تخصيص نسب مالية للباس.

الحديث الأول: في رواية النسائي أن أبي الأحوص (ض) أتي النبي ص في ثوب دون، فقال له النبي ص : ألك مال ؟ قال: نعم، من كل المال، قال: من أي المال؟ قال : قد أتاني الله من الإبل والغنم، والخيل، والرقيق، قال: فإذا آتاك الله مالاً فلير عليك أثر نعمة الله وكرامته"[1]

يفهم من النص أن النبي ص كره رؤية أبي الأحوص بهذه الثياب الرثّة، واستهجنها بحجة شرعية، إذ يلاحظ اختلاف موقف النبي من الحدث إذا كان الشخص فقيرا، بل كان على علم بثراء صاحبه، فالدرس الذي نفهمه من هذا التقريع النبوي هو عنايته باللباس، وتخصيص حصّته من ميزانية البيت، ولا ينبغي أن يفهم بأن المكلف هنا فقط هو المعيل، بل هو يحل مقام الشاهد فقط، فمسؤولية رب البيت نحو عائلته من الغذاء ومن اللباس واحدة.

وللإشارة فقط إلى أنّ الدلالة اللغوية للعائلة تقوم على معنى الإعالة، والتي هي من العول فالعَائِلَةُ فغي اللغة من يضمُّهم بيتٌ واحدٌ، من الآباء والأبناء والأقارب، وهي فاعلة بمعنى مفعولة، وكلمة عَائِلٌ جمع: عَالَةٌ، عُيَّلٌ، عَيْلَى، عَائِلاَتٌ (ع و ل) فاعل مِنْ عَالَ هُوَ رَجُلٌ عَائِلٌ كَثِيرُ الْعِيَالِ، فإعالة العيال واجبة على المسئول المالي للبيت.الحديث الثاني: قال أبو الدرداء (ض) سمعت رسول الله ص يقول:" إنكم قادمون على إخوانكم، فأصلحوا رحالكم، وأصلحوا لباسكم، حتى تكونوا كأنّكم شامة في الناس، فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحُّش[2]."

الحاجيات: المراد بها الأشياء التي تبعد الحرج والمشقة عن الإنسان، أو تخفف منها، وقد تأخذ في بعض المواقع موقف الضروري، مثل أدوات التنقل، أو ما تعرف حاليا بالمواصلات، فمن آداب التسيير، وحسن التدبر الاهتمام باقتناء المركب،

[1] أخرجه الترمذي في الجامع كتاب البر والصلة ،باب الإحسان والصلة رقم : 2006 والنسائي في السنن رقم 5294

[2] أخرجه أبو داود في سننه: كتاب اللباس رقم 4091

وفي عصرنا الراهن لا يحتاج العاقل لإثبات ضرورة وسائل المواصلات، وعليه فإننا نجد في السنة النبوية اهتماما شديدا بهذه الأدوات، وبالنظر إلى طبيعة العصر الذي كان يستخدم الدواب، فإن أنواع الدواب التي كان يملكها النبي (ص) تعكس عمق الرؤية الإستراتيجية، حيث كان الفرس أو الجواد مثالا للمركب المريح، والسريع، والذي يرتقي إلى مرتبة السيارات الفخمة حاليا، وامتلاكه لدواب أخرى تتفاوت من حيث القيمة ومن حيث الدرجة، مثل الحمير والبغال، والنوق.

وما نود الإشارة إليه مشروعية امتلاك المسلم لأدوات النقل، بأنواعها، بشرط الالتزام بأدبيات الأخلاق، فلا ينبغي أن يكون الغرض من اقتنائها رياء الناس، أو توظيفها في أمور لا أخلاقية، فالالتزام بالأخلاق معيار ضروري في تمييز الشرعي من غير الشرعي في السلوك، وسنورد بعض الأحاديث التي تؤكّد لنا امتلاك النبي (ص) لكثير من الدواب التي تقع محل السيارات، او المراكب عموما.

أخرج ابن سعد عن أبي حثمة (ض) قال : أوّل فرس ملكه رسول الله ص فرس ابتاعه بالمدينة من رجل من بني فزارة بعشر أواق، وكان اسمه عند الأعرابي [الضرس]، فسماه النبي (ص) [السكب]، فكان أوّل ما غزا عليه أحدا، ليس مع المسلمين فرس غيره، وفرس لأبي بردة بن نيار يقال له ملاوح[1]

قال ابن القيم :" وكان له من البغال دلدل ، وكانت شهباء، أهداها له المقوقس، وبغلة أخرى يقال لها: فضة، أهداها له فروة الجذامي، وبغلة شهباء أهداها له صاحب يلة، وأخرى أهداها له صاحب دومة الجندل، وقد قيل ان النجاشي أهدى له بغلة فكان يركبها."[2]

التحسينات: والمراد بها الأشياء الكمالية التي توفِّر الرفاهية في الحياة الدنيوية، والاهتمام بها لا يخرج مقتنيه عن المنحى الأخلاقي، بل نستشف من خلال النصوص وجوب الاهتمام، بالحياة الكريمة، بشرط الالتزام بالقيم الأخلاقية، فلا رياء، ولا كبر، والصغائر التي تخرج المباح من دائرة الإباحة إلى دائرة الكراهة، فإذا كان الحصول على هذه الأشياء إحراجا للغير، فقد تحول اكتسابها إلى مسلك لا أخلاقي.

الفراش: كان فراش النبي (ص) يشبه ما يعرف حاليا بالأسرّة، الذي يتكوّن من الألواح والقوائم، واهتمامه بتحسين الأسرّة ليس حبًّا في النوم لذاته، وإن كانت السيرة النبوية العطرة تؤكِّد أن نوم النبي الكريم لم يكن عميقا بالشكل الذي نعيشه نحن، ونهواه، بل كان اهتماما تشريعيا لعلمه بموقعه التشريعي في العقيدة الإسلامية، فكل سلوك يصدر عنه أو تقرير منه (ص) يعتبر تقنينا شرعيا لسلوك.

وفي النصوص التالية يظهر اهتمام السنة النبوية بتخصيص حصص مالية لتحسين ظروف النوم عند العيال، فحيازة الراحة، والسكينة في تحقيق الغرائز، على قاعدة ارتباط النوم بغريزة الحفاظ على البقاء، والتي تجد مستلزماتها في الفراش، وهو وإن كان يدخل في دائرة الضروري إلا أن تحسين صوره، وظروفه المادية يتدرج ضمن التحسينات.

عن عائشة(ض):" كانت قريش بمكّة وليس شيء أحب إليها من السرر تنام عليها، فلما قدم رسول الله ص المدينة ونزل منزل أبي أيوب (ض) قال: قال (ص): يا أبا أيُّوب، أمالكم سرير؟ فقال لا والله، فبلغ أسعد بن زرارة ض) فبعث إلى

[1] الطبقات الكبرى لابن سعد ج1 ص 490 زاد المعاد لابن قيم الجوزية ج1-133

[2] ابن قيم الجوزية ، زاد المعاد في هدي خير العبادج1 ص 134

رسول الله (ص) بسرير له عمود، وقوائمه من ساج، ورمله من خزم، فكان ينام عليه حتى تحول إلى منزلي، فكان فيه فوهبه لي، فكان ينام عليه حتى توفّي، فوُضِع عليه، وصلِّي عليه، فطلبه الناس منّا يحملون عليه موتاهم، فحُمل عليه أبو بكر وعمر (ض)، والناس يطلبون بركته.[1]

وفي حديث أخر: حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ مَنْصُورٍ، قَالَ : حَدَّثَنَا مُبَارَكٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا الْحَسَنُ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى سَرِيرٍ مَرْمُولٍ بِشَرِيطٍ، تَحْتَ رَأْسِهِ وِسَادَةٌ مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ، مَا بَيْنَ جِلْدِهِ وَبَيْنَ السَّرِيرِ ثَوْبٌ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ عُمَرُ فَبَكَى، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :"مَا يُبْكِيكَ يَا عُمَرُ؟" قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ مَا أَبْكِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلا أَكُونَ أَعْلَمُ أَنَّكَ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْ كِسْرَى وَقَيْصَرَ، فَهُمَا يَعِيثَانِ فِيمَا يَعِيثَانِ فِيهِ مِنَ الدُّنْيَا، وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّه، بِالْمَكَانِ الَّذِي أَرَى، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:" أَمَا تَرْضَى يَا عُمَرُ أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةُ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ:" فَإِنَّهُ كَذَلِكَ."[2]

نلحظ من الحديث شمولية السنّة النبوية لجميع مستلزمات البيت، فاحتواء النصوص لنوعية الأسرّة، وأشكالها، بيان، وإفحام للمغرضين القائلين بفقر النبي (ص)، وزهده في طيبات الحياة الدنيا، فمسؤولية النبي الكريم (ص) تستوجب عليه أن بكون نموذجا، ومنارا يستنير به جميع الأفراد، والجماعات، فالسعي في الدنيا لا يتعارض مع مطالب الآخرة، بل هي مزرعتها، وحرثها.

كما نستنتج من هذه الدراسة البسيطة اهتمام السنة النبوية بأخلاقية التسيير المالي للبيت، على قواعد شرعية وتشريعية متكامل، فالبيت وحدة، وبنية أولية في تركيب المجتمع المدني ككل، وأي إخلال في نظامها الاقتصادي، تتحمّل تبعته الجماعة المدنية ككل، والانحراف السلوكي مسألة اجتماعية بنتائجها، فردية بمبدئها.

وما نود الإشارة إليه في هذه الدراسة أنّ نسب الحصص المالية لمتطلّبات، ومستلزمات البيت في السنة النبوية مفصّلة، وموزّعة بطريقة عادلة، وما يوجب علينا كباحثين البحث، والتنقيب في السنّة النبوية لاستنطاق الحكمة المحمدية التي عجزنا عن إظهارها، والتي دفعت الكثير من أنصاف المثقفين إلى التطاول على مقام السنة النبوية الشريفة، وعلى سيد المرسلين محمد صلوات الله وسلامه عليه.

وتربية النموذج في الإسلام يقتضي تقوية معاني العقيدة الإسلامية وترسيخها في الناشئة في المراحل الأولى من التكوين في الأسرة قبل بلوغ سن الدراسة، والتركيز على تربية الوازع الديني، والأخلاقي في وجدان الناشئة، فهو بمثابة الحصن الذي يحفظ الأبناء من الانجرار مع تيارات التغريب، التيارات التي تفقدهم هويتهم وإنسانيتهم، وتقريب المعاني التي تضمّنتها السنّة النبوية من خلال أساليب تربوية جديدة، فالتراث الإسلامي غني بالمعاني والدلالات، فهو مطلق الدلالة على قاعدة تعلُّقه بالمطلق الإلهي.

والتشريع الذي يستمدّ أصوله وفروعه من المطلق، يبقى محاكيا له، متعاليا على أطر الزمان والمكان التي تضفي بعدا شرطيا، ومحدودية على إشاراته ولطائفِه، فقيم الإسلام داخل البيت لِبنات تأسيسية، وتكوينية للبيت الكبير (المجتمع المدني)،

[1] البغدادي تركة النبي .ص 63

[2] أخرجه البخاري في الأدب المفرد الحديث رقم 1163 تحقيق الألباني مكتبة الدليل السعودية الطبعة الرابعة ص ص: 451- 452

والسنّة النبوية وثيقة تاريخية وشرعية قيّدت فيها ومن خلالها أحكام النبي الكريم محمد (ص) مستودع الوحي الإلهي قال تعالى: "وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى[1] ".

قائمة المصادر:

القرآن الكريم
1. ابن رشد، أبي الوليد محمد بداية المجتهد ونهاية المقتصد، تحقيق صبحي الحلاق، مكتبة ابن تيميه، ط:1 القاهرة، 1994
2. ابي داود، سنن أبي داود، تحقيق : شعيب الاناؤوط، دار الرسالة العالمية، بيروت، الطبعة الاولى، 2009
3. البغدادي، حماد بن إسحاق بن إسماعيل، تركة النبي، تحقيق اكرم ضياء العمري، الطبعة الأولى 1984
4. الترمذي، ابي عيسى، سنن الترمذي، تحقيق مركز البحوث، دار التأصيل، الطبعة الثانية القاهرة 2016
5. الجوزية، ابن قيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق: شعيب الارناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، بيروت 1998
6. البخاري، ابي عبد الله محمد بن اسماعيل، صحيح البخاري، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، الطبعة الاولى 2002
7. ----------، الأدب المفرد، تحقيق الألباني، مكتبة الدليل، الطبعة الرابعة، السعودية 1994
8. السمان، عبد الفتاح الاقتصاد النبوي دراسة موضوعية في السيرة المالية للنبي (ص) رسالة ماجستير 2010
9. مسلم، بن الحجاج، صحيح مسلم، تحقيق: نظر بن محمد الفاريابي أبو قتيبة، دار طيبة، الطبعة الأولى الرياض 2006

[1] سورة النجم الآية :3-4